فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : إن الاسلام سوى و « مناراً » كمنار الطريق ﴾

مصر في يوم الاربعاء ١٦ جمادى الاولى سنه ١٣٢٠ ـ ٢٠ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٢

(الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد قاضي القضاة في الاندلس)

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين وأكبر أساتذة أوربا في العلم والفلسفة لأن فلسفته انتقلت من الأندلس (اسبانيا) إلى سائر بلاد أوربا فكانت مبدأ نهضة الأوربيين الحاضرة . ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة . وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب

وقد نشرت مجلة الجامعة الغراء تاريخه وتكلمت عن فلسفته واستطردت إلى مسائل أخرى كمذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل . والانسان دائماً عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتلقي عن أهله إذا تكلم أو كتب فيه . وان صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الاسلامية لانه ليس مسلماً ولا فلسفة اليونانيين لأنها قد نسخت بالفلسفة العصرية فلا شك عندنا أنه لم يتعمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبه أئمة المسلمين في العقائد إلى انكار ارتباط الاسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساؤا الظن به واحتموا عليه ورغبوا الينا في الرد عليه لأن من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الاسلامية وعن أئمة المسلمين

وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض اساتذتنا الاعلام ، الذين يرجع إليهم إذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام ، ولما رأينا ذلك الاستاذ وعد الطالبين بأن يكتب

فى بيان حقيقة تلك المسائل التى وقع فيها الخطأ امسكنا نحن عن الكتابة لأنه هو الأجدر بالفصل بين الحق والباطل . والذى إذا قال لم يترك مجالا لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فننشر فى هذا الجزء مقالته فى فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين . وسننشر فى الاجزاء التالية مقالاته فى الاضطهاد فى النصرانية والإسلام »

تمهيد لمقالة الأستاذ الحكيم : لابد لفهم قراء المنار هذه المقالة من ذكر ما قالته الجامعة فى فلسفة ابن راشد لأن كاتب المقالة لم يذكر فيها الا مواضع النقد قالت الجامعة :

﴿ المادة وخلق العالم ﴾

« ان أعظم المسائل التى شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل الكائنات ، وهو يرى فى ذلك رأى اريسطو . فيقول ان كل فعل يفضى إلى خلق شئ إنما هو عبارة عن حركة . والحركة تقتضى شيئاً لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخالق وهذا الشئ هو فى رأيه المادة الأصلية التى صنعت الكائنات منها . ولكن ما هى هذه المادة ؟ هى شئ قابل الانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف . بل هى ضرب من الافتراض لابد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبدياً بسبب مادته أى انه لايتلاشى أبداً لان مادته لا تتلاشى أبداً . وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لابد له من هذا الانتقال والا حدث فراغ ووقوف فى الكون وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة فى العالم ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شئ قط . وبناء عليه فالعامل الأول الذى هو مصدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا والخالق تنزه عن ان يكون حديثاً

﴿ اتصال الكون بالخالق ﴾

« هذا فيما يختص بخلق العالم ، وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى . ولكن كيف يستولى العامل الأول على الكون ويدبره

« لابن رشد فى ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه فى هذه المسألة الخطيرة . فانه يشبه حكومة الكون أى تدبيره بحكومة المدينة . فانه كما ان كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه إلى نقطة واحدة وهى نقطة الحاكم العام فيها فيكون هذا الحاكم مصدرا لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يد فى كل شأن من هذه الشؤون كذلك الخالق فى الاكوان فانه نقطة دائرتها ومصدر القوات التى تدبرها وان لم يكن له دخل مباشرة

فى كل جزء من هذه القوات . فبناء على ذلك لا يكون للكون « اتصال » بالخالق مباشرة . وإنما هذا الاتصال يكون للعقل الأول وحده وهذا العقل الأول هو عبارة عن المصدر الذى تصدر عنه القوة للكواكب . وعلى ذلك فالسماء فى رأى فيلسوف قرطبة كون حى بل أشرف الأحياء والكائنات ، وهى مؤلفة فى رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة والنجوم والكواكب تدور فى هذه الدوائر . أما العقل الأول الذى منه قوتها وحياتها فهو فى قلب هذه الدوائر ولكل دائرة منها عقل أى قوة تعرف بها طريقها كما ان للانسان عقلا يعرف به طريقه وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض والتى تلى بعضها بعضاً محكومة بعضها ببعض إنما هى عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الأولى فى السماء إلى ارضنا هذه . وهى عالمة بنفسها وبما يجرى فى الدوائر السفلى البعيدة عنها . وبناء على ذلك يكون للعقل الأول الذى هو مصدر كل هذه الحركات علم بكل ما يحدث فى العالم .

(طريق الاتصال)

« وان قيل ماهى علاقة الإنسان بالخالق . فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضاً عن ارسطو من الفصل الثالث من كتابه «النفس» وخلاصة ذلك ان الكون عقلا فاعلا وعقلا منفعلا فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الإنسان وغير قابل للامتزاج بالمادة وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشى مثل باقى قوى النفس وإنما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين . ذلك ان العقل المنفعل يميل دائما للاتحاد بالعقل الفاعل كما ان القوة تقتضى مادة تنفذ فيها والمادة تقضى شكلا توضع به . وأول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل المكتسب ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً أشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها حد الامتزاج بالعقل القديم الأزلى . ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابى الذى تقدم ذكره فانما وظيفة العقل الاكتسابى ايصاله إلى حرم الخالق الأزلى دون أن يدعمه به . وأما ادعامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم الا بطريق «العلم» فالعلم إذاً هو سبب «الاتصال» بين الخالق والمخلوق . ولا طريق غير هذا الطريق . ومتى اتصل الإنسان بالله صار مثله عارفاً بكل شىء فى الكون ولم يعد يفته شىء . ولكن كيف يتصل الإنسان بالله ؟ يتصل به بان ينقطع إلى الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجب الاسرار التى تكتنف الكون فانه متى خرق هذا الحجاب ووقف على كنه الأمور وجد نفسه

وجها لوجه امام الحقيقة الابدية

« اما المتصوفة فانهم يقولون ان هذا « الاتصال » يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضروريا له

« وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى قائده العلم . والكون فى رأيه كما مر بك إنما صنع بقوة مبادئ قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض وكلها مرتبطة ارتباطاً مبهماً بقوة عليا ومن هذه المبادئ شئ يستولى على العالم ويضع فيه العقل فهو عقل الانسانية . وهذا الشئ الذى يسميه عقلا أيضاً هو عقل ثابت لا يتغير أى انه لا يتقدم ولا يتأخر لا يزيد ولا ينقص . والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة . على أن من كان منهم أكثر استمداداً منه كان أقرب إلى الكمال والسعادة »

(الخلود)

ثم تكلمت الجامعة بعد ماتقدم عن رأى ابن رشد عن خلود النفس فقالت بعد كلام ما نصه : « قال : ان العقل الفاعل العام الذى تقدم ذكره من صفاته انه مستقل ومنفصل عن المادة وغير قابل للفناء والملاشاة ، والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الإنسان ، وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالداً والعقل المنفعل فانياً ، ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذى هو خالد فى رأى ابن رشد ؟ ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الإنسانية فالإنسانية اذاً هى خالدة وحدها دون سواها ، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شئ مما يقوله العامة عن الحياة الثانية » اهـ

(دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين)

(لأستاذ حكيم ، وفيلسوف عليم)

قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد . مررت على ما نقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لأنى أعرف آراء الفريقين من قبل ولم يكن لى قصد إلى النقد وإنما أريد أن أستفيد جديداً . لهذا لم يقف نظرى لأول وهلة الا على ما حوته تلك الجملة (الاضطهاد فى النصرانية والإسلام) قرأتها بتروٍ وانتهيت منها إلى حكم من الجامعة يخالف ما اعتقد

ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية ، عند ذلك تحركت نفسى إلى كتابة سطور ، أشيرُ فيها إلى كشف مستور ، أو إعادة ذكر مشهور على أسماع الجمهور .

لاقانى بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الأثر فى نفسه أشد ، ولسانه فى العتب أحدّ وذكر أشياء فى غير هذا الفصل من الترجمة ولفتنى إلى إعادة النظر فيها رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يعتباران منى الكلام عليهما ، وبأن أحاديث الجامعة فيهما لو كانت منزلة الجامعة من نفسى منزلة غيرها من المجلات التى لا يُعنَى كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ، ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملى ما يصرفنى عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجلات التى لو أهملتُ مباحثها من إتمام النظر وجعلتُها فى جانب عما تستحقه من النقد لبخستها حقها ، ونبوتُ بها عن موضعها .

لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت فى ذينك الموضعين وأبين حقيقة الأمر فى الثالث . أما الموضعان فهما : (فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه فى خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الإنسان به والخلود) وهما موضوع كلامى اليوم

« فلسفة المتكلمين وآراؤهم فى الوجود »

قالت الجامعة « فلسفة المتكلمين هذه (أى فى وجود العالم) مبنية على أمرين . الأول حدوث المادة فى الكون أى وجودها بخلق خالق . والثانى وجود خالق مطلق التصرف فى الكون ومنفصل عنه ومدبر له

وبما أن الخالق مطلق التصرف فى كونه فلا تسأل إذاً عن السبب إذا حدث فى الكون شىء لأن الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه . إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق كأن ينتج بعضها عن بعض لأن هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفى الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق . ثم ذكرت فى الجملة التى تلى ما تقدم أن هذه فوضى ، وأن روحاً جديداً لم يدخل شيئاً من النظام فيها[1] .

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق وإن الخلق فى اصطلاحهم هو الإيجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الإلهى . فأرسطو يقول إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب . وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ما سيأتى بيانه وإن كان لا أول لوجودها وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى إليها سلسلتها من جانب الماضى . ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وصفاته عند القائلين بأنها وجودية . وقبل هذه البداية التى لا يتكون من بعدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ثم إنه أريد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت . هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر

(١) ذكرت الجامعة الغراء أن سبب هذا الروح النظامى فى مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذى اقتبسه من دروس الإمام كبير رجال النهضة الإسلامية الحاضرة

من المسيحيين واليهود أيضاً فلم يخالف فيه ملّى من أهل الملل الثلاث .

أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن أو أنه يجوز أن يتفق مع معانى القرآن رأى آخر بل هو الذى يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن فإن كلامنا فى تصوير مذهب المتكلمين .

الأصل الثانى ـ وهو وجود خالق مطلق التصرف ـ لازمٌ للأصل الأول لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فوجده هو خالقه وهو مطلق التصرف بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذى يخلق . والمتكلمون وإن اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا إلى فريقين عظيمين فالقدرية منهم ويسمّون بالمعتزلة أيضاً قالوا : إن الخالق وضع للكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين وأودع فى المخلوقين قوًى أو قُدَرًا تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار . فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار لمصادرها أو تأثير قدر المخلوقين فى أفعالهم . وقد بقى من أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الإمامية والزيدية فإنهم لا يخالفون المعتزلة فى هذه الاصول . فإذا حدث فى الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له وإن كانت جميع الأسباب تنتهى إلى مصدرها الأول وهو الخالق كما يسأل الفيلسوف بلا فرق .

والفريق الآخر الذى عنته الجامعة وهو الذى يرى إسناد الآثار إلى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبّباتها بل قال إن الله يُصدر وجود المسبَّب عند وجود السبب فلا يقال: إن الأكل (مثلا) هو الذى يحدث الشبع بل الشبع شىء يحدثه الله عند الأكل ولكنه

لا يحدثه عند الهوى إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذى جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه وحمل هذا الفريق على هذا القول إنكاره نسبة الإيجاد ومنح الوجود إلى شىء سوى واجب الوجود وقالوا فى الأفعال الاختيارية إن الله يوجدها عند تعلق كسب العبد بها ولهم فى تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه وقالوا إن الأسباب والآلات لابد منها فى صدور الأثر إلا أن الذى يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق ، ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام الشرعية يعتمد التمكن من الإتيان بالمكلف به من حيث حال المكلف وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشىء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه ، غير أنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادية لأنه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها ولقبوا ما يحدث فى العالم مخالفا لها بخارق العادة وليس كل غريب عندهم خارقا للعادة بل الخارق هو ما لا يدخل فى مكنة قوة حادثة ولا يقدر على إحداثه إلا انفراد على مخالفة النظام الذى سنه وهو الله

هذا الفريق من المتكلمين يستند فى إثبات صفة العلم لله تعالى إلى ما فى هذا العالم من النظام وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحكم وهل يتأتى هذا الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومسبباتها كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيراً من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث الحيوان والنبات والمعدن منهم الأئمة الرازيون كفخر الدين الرازى وأبى بكر الرازى ومحمود الرازى وأمثالهم ومنهم مثل الإمام أبى بكر الباقلانى . وكيف يتيسر لقائل أنه لا علاقة بين الأسباب

والمسببات أن يبرع فى فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار وما يقارنها فى العادة مما هو مصدر لها فى بادىء النظر.

فإذا حدث فى الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذى جرت سنة الله بأن يكون معه وإن شئت قلت سأل عن السبب الذى أصدر الله وجوده عنده. وهل يمكن أن يقول المتكلم أنه لا علاقة بين وجود الولد ووجود والديه أو بين جَوْدَة العمل وعلم العامل أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر؟ هذا شىء لم يقل به قائل منهم قط وإلا لما قرأ واحد منهم كتابا ولا خط فى صحيفة سطراً لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والأفهام.

فإن شئت أن تقول إنه مذهب مع ذلك غامض يكدّ الذهن فى فهمه فلك أن تقول وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله وأن تناقش بالدليل الدليل. وعلى الله قصد السبيل.

القول بنفي الرابطة بين الاسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحوّل عن مكانك فيتحول الجبل[1] يليق بأهل دين يعدّ الصلاة وحدها إذا أخلص المصلى فيها كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى. وليس هذا الدين هو دين الإسلام دين الإسلام هو

(١) المنار — يشير إلى ما جاء فى الإنجيل نوقا من الباب ١١ «٢٣ لانى الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن ان ما يقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كلما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم»

الذى جاء فى كتابه «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم» الآية «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» الخ «سنة الله فى الذين خلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنة الله تبديلا» وأمثالها «ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار» الآيات. فلا يمكن لاهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب فى هذا العالم والمسببات ولهم أن ينبهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسهُ على دعث من الخوارق لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل، وإنما وضع على مستقرّ من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب الى ارتفاع ما بين حوادث الكون الترتيب فى السببية والمسببية الا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله.

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين الى ائمة ذلك المذهب وأساؤا الظن بالقدر وتظاهروا وابتزك الأسباب فى أقوالهم، وان كانوا أشد الناس تمسكا بها فى رذائل أعمالهم، وتعلقوا من الخوارق بحبل ومن ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل فظن الناظرون فى قذائف أفواههم، ان هذه الأوهام مما بنى عليهم اعتقادا سلافهم، فلا يغترنّ بعد ذلك مغترٌ بما يظنّ أولئك الناظرون ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون «سبحان ربك رب العزة عما يصفون».

هذا ما يتعلق برأى الجامعة فى مذهب المتكلمين أو فلسفتهم وننتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه.

﴿ فلسفة ابن رشد ورأيه فى المادة وخلق العالم ﴾

المادة وخلق العالم قالت الجامعة: إن المادة «ضرب من الافتراض لا بد منه» الافتراض يراد به عند الإطلاق الفرض وهو فى اصطلاح

الفلاسفة مالا وجود له والمادة عندهم موجودة كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريب وفيما بعده .

ثم قالت : « وبناء عليه فالعامل الأول الذى هو مصدر القوة والفعل (أى الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار فى فعله لأن الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا والخالق ينزه عن أن يكون حديثا » . وقالت بعد هذا بسطرين : « وهو (أى مذهب ابن رشد) مذهب قريب جدا من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت أن الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة وأن المباشر للتصرف فى الكون هو العقل الأول وحده وأن السماء كون حى مركب من عدة دوائر والعقل الأول قائم هذه الدوائر ولكل دائرة عقل أى قوة تعرف بها طريقها » الخ

أما مسألة نفى الاختيار فقد ذكرت عليها إبهاما وأدى ذكرها كذلك الى استنتاج ان مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين وليس الأمر فى حقيقته كذلك .

يعلم كل ناظر فى مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين إلهيين وماديين والأولون فريقان مشاؤون وإشراقيون والمشهور أتباع أرسطو باسم المشائين وأتباع أفلاطون باسم الإشراقيين .

وأول مميز للإلهيين عن الماديين أن الأولين يقولون بوجود واجب برىء من المادة والمديات وبوجود عقول مجردة عن المادة وعوارضها وبان الواجب علما بذاته وبجميع مايصدر عنه وعن آثاره وان للعقول المجرد عقلا علما بذواتها وبمبدئها وبما يصدر عنها . والماديون لايقولون بشىء من ذلك البته فالتعريب بينهما تقريب بين النقيضين . وابن رشد من

مقرري مذهب أرسطو فهو من الإلهيين .

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة اكبر دليل على مفارقة الماديين كما يفارق المجرّد والمادّة وقد شرطوا فى هذا التشبيه ان المدبّر خارج عن المدبّر مفارق له منزه عن مخالطته .

أما العقل الأول فليس كما تقول المجامعة . فإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة وهو أوّل صادر عن الواجب وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمّى عندهم بالفلك الأطلس ونفس ذلك الفلك الخ ثم صدر عنه العقل الثانى وعقل آخر هو العقل الثانى وعن هذا الثانى صدر الفلك الثامن المسمّى عندهم فلك الثوابت ونفسهُ والعقل الثالث وهكذا الى أن صدر عن العقل التاسع فلك القمر ونفسه والعقل العاشر وهو المسمّى عندهم بالعقل الفعّال او العقل الفياض وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية واليه يرجع ما يحدث فى عالمها . ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول فى قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين بل هو مفارق لها كما ان نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ولها تعلق بأجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتى بيانه

والذى حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم فى تنزيه الواجب وقولهم انه واحد من جميع الوجوه وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العاقل الأول . ولما تعددت وجوه العاقل فى ذاته والنسبة بينه وبين مصدره العاقلة لذاته وعقله لوجوده صح أن يصدر عنه متعدّد . ولهم فى الاستدلال على حياة الأفلاك مقدمات لا حاجة إلى ذكرها لأن الكلام فى تصوير مذهبهم

لا فى تقريره أو إبطاله

فالمعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ولا ينشاهاشىء من ظلماتها وليس العقل الاول بمدبر الكون وإنما هو مصدر الفلك الاطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته . وهكذا الأمر فى كل عقل مع الفلك الذى صدر عنه وتدبير العالم العنصرى وهو ما دون فلك القمر راجع الى العقل العاشر وهو العقل الفعّال .

قال الفلاسفة الإلهيون : ولا يجوز أن تكون لأفعال الله غايات وأغراض تبعثه على اصدارها وان مايصدر عنه إنما يفيض بمحض الجود المطلق عن غنى مطلق وقد صرح ابن رشد فى تهذيبه لإلهيات أرسطو وبذلك وهذا مبالغة منهم فى نسبة الكمال إلى الله على أن مايصدر عنه إنما يصدر عن علم فالذى ينفى عنه انما هو الاختيار بمعنى التردّد بين الغايات ثم ترجيح إحداهما أما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون اكراه عليه فذلك لاينفيه أحد منهم . والملّيون من متكلمين ولاهوتيين وان لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول اليه والتزموه فقد ذهب جمهورهم والمعوّل على رأيه عند قومه منهم أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلاً وأبداً وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه وعلمه لازم لذاته أزليّ بأزلية ذاته وكل ما يكون فى الكون لابدأن يقع على وفاق مع علمه الأزلى جل شأنه فلا تردّد عنده بين الغايات بل مايصدر عنه اليوم كان لابد أن يصدر عنه . والأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم فى علمه فهى تصدر عنه على حسب ترتيبها فى العلم . وسواء كان القول غامضاً أو غير غامض وسواء توجه عليه من النقد مايصعب الجواب عنه

إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجه كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفى الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس وان ثبت الاختيار بالمعنى الذى يليق بكمال الله تعالى فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق فى حقيقة المسألة وان اختلفت العبارات. فابن رشد رحمه الله لم يخرج فى آرائه عن المليين فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريبا منه.

﴿ طريق الاتصال ﴾

يتوهم الناظر فى هذا العنوان فى الجامعة مع مراعاة الفصل الذى تقدمه فيها أنه عنوان لرأى ابن رشد فى طريق اتصال الكون بالخالق فاذا استمر فى قراءة ما بعد العنوان الى آخر الفصل علم ان المراد طريق اتصال الانسان وحده بخالقه وعثر فى آخر البحث على هذه العبارة: «وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادى قاعدته العلم»: اما ما بين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم فى مذهب الفيلسوف. وانى ذاكر لك رأيه فى اتصال الإنسان بالله أى قربه منه وسعادته به وفى طريقة تكميله لنفسه حتى يسعد لذلك القرب وبذلك تعرف أن ما جاء فى الجامعة ليس بالذى تصح نسبته اليه خصوصا بعد قولها إنه أخذ مذهبه فى ذلك عن أرسطو من الفصل الثالث فى كتابه (النفس) وما قاله أرسطو فى ذلك الكتاب معروف مشهور.

اثبت أرسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الإسلام أن نفس الإنسان التى هو بها إنسان — وهى ما يلقبونها بالنفس الناطقة — جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال فى جسم وانما له علاقة بالجسم يدبره ويصرفه وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ولهذه

النفس آلة فى الجسم بها يكون التدبير

وقالوا ان انطباع المحسوسات والمعانى الجزئية فى الحواس الظاهرة والباطنة على ما فصّلوه يُعدّ النفس لقبول الكليات ويهيؤها لتلقى المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعّال الذى سبق لنا ذكره

وجعلوا مراتب النفس فى استحصالها كمالها العلمى وبلوغها ذروته اربعاً (الأولى) العقل الهيولانى وهو قوة استعداد النفس نحو المعقولات وتسميته عقلا تسمية مجازية و(الثانية) العقل بالملكة وهى القوة التى تحصل للنفس عند حصول المعقولات الأولى مثل الجزء والكل ومثل الحكم بأن الأول أصغر من الثانى ومثل النفى والاثبات والحكم بانهما لا يجتمعان فى محمول واحد لموضوع واحد . وكذلك كل ماخلص من محسوس وهو لا يحتاج فى تخليصه إلى فكر ، والنفس تتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات الثانية إما بالفكر . وإما بالحدس وليس الحدس هو الظن كما هو فى المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادىء إلى المطالب أو انتقال النفس من المعلومين إلى الوسط الذى يصل بينهما ومن ذلك إلى معلوم ثالث بلا تجشم نظر ولذلك جعل مقابلا للفكر الذي هو النظر بعينه ؟ و (الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد وهى أن تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة فى الذهن . والرابعة قوة تسمى (العقل بالفعل) وهى ما به تتمكن النفس من استحضار المعقول المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب

قالوا والذى يرقى بالنفس فى هذه المراقي هو العقل الفعال وهو ذلك العقل العاشر المصرف للمادة العنصرية لا عقل الإنسانية العام كما تقول الجامعة

فإن أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الإنسانية العام بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التى عُنىَ أرسطو بإبطالها وتبعه ابن رشد وغيره فى نفيها . فالعقل الفعال هو الذى يخرج النفس من العقل الهيولانى إلى العقل بالملكة ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ومنه إلى العقل بالفعل

ولما كان العقل الفعال جوهراً عقلياً بالفعل كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل أما نفوسنا فهى عقول بالقوة ولكنها إذا استعدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أى بالإقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لأحكام خاصة. وإدراك المعانى الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس فى المعقولات الأولى والبحث والتجربة والدرس وما يجرى هذا النحو كل ذلك من تحصلات الاستعداد لقبول المعقولات فى الموضوعات التي كان الاستعداد فيها. فإذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت إلى جانب الحس أو إلى صورة أخرى غير التى حصلت لها بذلك الاستعداد انمحى المتمثل الذى كان أولا كأن المرآة التى كان يحاذى بها جانب القدس، قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس، أو إلى شىء آخر من الأمور القدسية.

قالوا: وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المعقولات له علة وعلته قوة بعيدة هو العقل الهيولانى وقوة كاسبة هى العقل بالملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهى المسماة بالعقل بالفعل

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد منها أن الجوهر

العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها . واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التى تحصل لها وتصير المعقولات كلها معقولاً واحداً بل يلزم عليه انعدام النفس وهو جوهر ما عقلته أو استحالة النفس إليه وهو محال وخلاف الفرض . ونقلوا عن فرفوريوس أنه قال : إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشىء باتصالها بالعقل الفعال وهو حق فى رأيهم ولكنه قال إن معنى اتصالها بالعقل الفعال أن تصير هى نفس العقل الفعال لأنها تصير العقل المستفاد والعقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد . وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شىء دون شىء وهو مجرد لا يتجزأ أو تتصل به النفس اتصالا واحداً تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول وهو ليس بحاصل فى جميع الأحوال وقالوا إن دعوى اتحاد شىء بشىء آخر على معنى استحالة الأول إلى الثانى قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها . أما استحالة النفس إلى العقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا أن اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفته الجامعة بلا معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الأعلى فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطالع ذلك النور الأجلى ، فهل مع هذا تصير من يدرى إلى الفيلسوف ما عنده غير معقول ؟

قال الفيلسوف وحقيقته إن النفس الناطقة التى هى موضوع هذه الصورة المعقولة غير منطبعة فى جسم تقوم به بل هى جوهر عقلى ذو آلة بالجسم

فاذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظاً للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها بل تكون باقية بما هى مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية . فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء فى شىء سواها لا عقل فعّال ولا وجود واجب وهى تسعد بكمالها العلمى والأدبى الذى حصلته مدة تعلقها بالبدن. وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذة لها. وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها. فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة . خلودها خلود لشخصها المتميز من كل شىء سواها سواء كان عقلا فعالا أو غيره

فهل بعد هذا يعدُّ الفيلسوف ماديًّا ومذهبه مذهبًا ماديًّا قاعدته العلم ؟ لا بل هو إلهى ومذهبه مذهب إلهى قاعدته العلم قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها كما رأيت .

بقى علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوربا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد فى مبدء العالم ومصدر وجوده . قالوا لم يكن يُعرف العلم والفلسفة عند الأوربيين إلا فى مدارس المسلمين فى اسبانيا فكان يقصد تلك المدارس طلاب العلم من كل نحو . كان يجلس فى درس الفيلسوف عدد عظيم لم تأت نهاية القرن الثانى عشر (الميلادى) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشىء من العلم رأى زعزع طمأنينة الكثيرين وأفزع القلوب بغتة على مفاتيح القلوب بذلك الوقت الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاؤا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون منها ما شاؤا ذلك الرأى الذى أخذ يتسرب إلى القلوب رويدا رويدا حتى كاد أن يجمع شمل المفكرين أجمع ويرجع فى وجوده إلى واحد هو حياة الكل وهو روح يقوم به كل جزء منه . وقالوا إن

الذى نشر هذا المذهب بين الناس هم تلامذة ابن رشد ففهم بعض علمائهم من ذلك أن ابن رشد كان يقول إن مبدأ العالم هو أصل عرضت له صور العالم أو روح ظهر فى مظاهر الكائنات كما يقول الصوفية أو نحو ذلك، واستتبع هذا رأياً آخر وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطلت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام إلى مشرقها العام، وتفقد امتيازها فيه، وذلك كله وإن ذهب إليه بعض النظار من الأوربيين غير ما يقول ابن رشد. أما ما يقول ابن رشد فهو كما ترى:

قال ابن رشد وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا فى ذلك أرسطو أن الممكن لا وجود له فى ذاته وإنما يستفيد الوجود من غيره وقد كانوا قالوا إن جميع ما فى الكون ماعدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن فكل ما فى العالم فهو مستفيد الوجود من غيره فذلك الغير إن كان ممكناً فكيف يعطى الوجود وهو لا وجود له إلا من غيره فإذا استمد وهو مستمد فإنما يستمد من فضل ذلك الوجود الذى جاءه من موجده إلى أن ينتهى إلى الوجود الأول. فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود إلا من وجوده أو كل وجود فهو شعاع لضيائه وجوده فإذا حرر المعنى من هذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع إلى ما قاله السيد الشريف من أئمة أهل السنة وغيره وهو إن الممكن ليس بشىء فى ذاته ثم يكون شيئاً بالإيجاد. والإيجاد لو حققته أمر اعتبارى انتزاعى له منشأ فى الواقع وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الوجود الممكن التى صارت شيئاً بتلك العلاقة الاضافية

[illegible] وما هية الممكن ليست بوجود ولا الوجود أمر موجود قائم بها . فإذ ليس من وجود قسى الأمر إلا وجود الواجب فكان الوجود الحقيقى واحداً وسائر ما يسمى وجوداً أو موجوداً فإنما ينال ذلك بالإضافة إلى الوجود الحقيقى وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن تكون حقيقية .

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن المادة والمدة إلا أن من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذهوله رأى القائلين بأن الموجد الأول روح سار فى العالم وإليه يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه وما هو برأي ابن رشد ولا يعرفه

على أن الصوفية وهم المصرحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولا والفناء آخراً الناطقون فى ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالا حقيقياً بل قالوا : إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان ولكنها تسعد فى خلودها باستغراقها فى شهودها ، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها ، فهى غنية ببرقانه عن معرفتها بنفسها وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذته ، والمحو وبهجته ، وهو معنى تقصر دون إفهامه العبارات ، وإن كن فى تعريفه لأهله أخف الإشارات .

ولعل الجامعة لا تعيب على الكاتب فيما كتب وفيما أجاب به من طلبه فقد وفى بحقها لو أغفلها مع علمها بالقدرة عليه . فلعل لها أن توجه العتب إليه

هذا ما أردنا إيجاز القول فيه متعلقاً بفلسفة المتكلمين ورأى الفيلسوف وننتهى بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام ، على [illegible] الإسلام ، إن شاء الله تعالى .